الفصل الخامس

# الكنيسة تقاتل التغيير: العصور الوسطى (1000 – 1500م)

تحدت روح العصور الوسطى سلطة الكنيسة التي تأسست الآن، وردت الكنيسة بدعم هيكلها السلطوي، حيث أكدت تفوق البابا على جميع السلطات الإمبراطورية، وبحشد أوربا ضد المسلمين، واليهود، والمسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، وعندما أخفقت الحروب الصليبية في توحيد أوربا تحت سيطرتها قاتلت الكنيسة ضد كل من تصورته عدواً مثل: مقرضي الأموال، ومؤيدي الدول الوطنية، والكاثاريين Cathars.

وظهرت دلالات تغييرات كبيرة مع نهاية الألف الأول في العصور الوسطى العالية، فقد بدأ مجتمع زراعي بالإسهام في نمو سريع للمدن مع اشتداد الانفجارات السكانية بشكل لم يعرف له نظير في العالم الغربي حتى القرنين التاسع عشر والعشرين[1]، فقد بدأت أعدادٌ متزايدة من الناس في جعل حياتها تعتمد على التجارة والصناعة، وبذلك أسهمت طبقة اجتماعية جديدة من التجار والصناع[2]، وغالباً ما جاء هؤلاء التجار بمثابة أمثلة على أنه من خلال الذكاء، والنشاط، والصناعة، يستطيع الإنسان تغيير الكثير من الجوانب الحياتية، ونشر التجار معارف جديدة مع أفكار حديثة جلبوها من عالمي العرب، والإغريق لدى سفرهم على طرق التجارة من شمالي إسبانيا ومن جنوبي إيطاليا.

وجرت الآن ترجمة الكثير من الأعمال الكلاسيكية اللاتينية، التي ضاعت في ظل حكم الكنيسة، ترجمتها مجدداً من العربية إلى اللاتينية، وعندما أعيدت أعمال

أرسطو فقدمت مجدداً إلى الغرب، تحدت بتفكيرها المنظم، وبجذورها العلمية، وبنظامها، مطلب الكنيسة بأن على الإنسان أن يقبل تأكيداتها بإيمان أعمى، ففي القرن الثاني عشر استخدم بطرس أبيلارد Abelard الطرائق المدرسية العلمية لتشجيع اتخاذ القرار الفردي، وليناقش مدى صحة التأكيدات الكنسية، وليظهر التناقضات في عقيدة الكنيسة وكتاباتها المقدسة.

وبدأت أمور حصر الكنيسة لجميع أعمال التعليم والإبداع في الأديرة بالانهيار، ولم يقتصر الحال الآن على إنشاء مدارس غير لاهوتية لتقدم ثقافة أولى وتعليم إلى طبقة التجار والحرفيين، بل جرى تشكيل جامعات في المناطق المدنية، مثل: باريس، وأوكسفورد، وطولوز، ومونبيلر، وكمبردج، وسالرنو، وبولونا، وسالامنكا[3]، وشاهد العصر ملاحم أدبية ورومنسيات، مثل: رومانسية الوردة، وأغنية السيد، وفرسان المائدة المستديرة لآرثر، وnibelungenlied، والكوميديا الإلهية لدانتي[4]، وقدم مهرجو البلاط، أو الحمقى مصادر معاصرة لأعمال شعرية وأدبية عامية، وأنتج الاهتمام المتجدد في البناء والعمارة الأبنية القائمة على الأعمدة حسب النموذج الرومانسي، وكذلك بداية الفن القوطي، والبراعات الهندسية الميكانيكية، وعادت المخطوطات المزينة إلى الحياة[5]، وبدأ الفن، والأدب، والهندسة المعمارية، كله بالازدهار من جديد خلال العصور الوسطى العالية.

ومع هذا الازدهار والنشاط بقي المجتمع خاضعاً وهامداً، وهكذا قاومت الكنيسة التغييرات الكثيرة التي كانت تأخذ مكانها، فقد قضت أوامر التحريم البابوية في 1210 و1215، بتقييد تعليم أعمال أرسطو في باريس، ومع عام 1272م جرى منع أية مناقشة لأية قضية لاهوتية[6]، وأعطى القديس برنارد أوف كليرفو Clairvaux صوتاً فيه تأييد عاطفي للكنيسة عندما قال عن أبحاث أبيلارد العلمية: «إن كل شيء قد عولج بشكل مضاد للعادة والتقاليد»، وقد كتب برنارد يقول: «لقد جرى الاستهزاء ببساطة الإيمان، وتم تدنيس أسرار المسيح، والأسئلة حول الأشياء العالية سئلت بوقاحة وعدم ترابط، وتم الاستخفاف بالآباء لأنهم انصرفوا نحو المصالحة، وفضلوا ذلك على حل مثل هذه المشاكل، والعقل البشري يقوم باقتناص كل شيء لنفسه، تاركاً لاشيء للإيمان»[7].

وأظهرت الكنيسة مثل هذا الاستنكار لانتعاش الآداب الكلاسيكية، مثلما تساءل في القرن الثاني عشر كرستيان هونوريوس أوف أوتون Christian Honorius of Autun:

*«كيف استفادت الروح من صراع هكتور، ومن مناقشات أفلاطون، ومن أشعار فرجيل أو من مراثي أوفيد، وتأملاته، الذين هم الآن مع آخرين من أمثالهم يعضون أسنانهم ندماً في سجن بابل الجهنمي تحت الطغيان الوحشي لبلوتو Pluto»*[8].

وعاملت الكنيسة الشعر وقدرته بكراهية، وصنفت الشعراء في بعض الأحيان مع السحرة الذين تزدريهم الكنيسة، فقد رسم رسام القرن الثاني عشر هورتوس ديليسياروم أوف هيراد أوف لاندزبيرغ Hortus deliciarum of herrad of landsberg على سبيل المثال: «أربعة شعراء أو سحرة»، وكل منهم مع روح شيطانية تحثه وتحرضه[9]، وأصر رجال اللاهوت على أن مهرجي البلاط «ليس لهم منفعة أو فضيلة» وليس «لهم أمل بالخلاص»[10].

وعبر المسيحيون الأرثوذكس عن مقت واستخفاف تجاه الازدهار والابداع، وأعلنوا أن مؤيدي الفنون هم مشركون وكفارٌ وثنيُّون، واعتقد المتحدث بصراحة في القرن الخامس عشر، المتنبئ الدومينيكاني غيرولامو سافونا رولا Girolamo savonarola أنه ينبغي طرد الشعراء ونفيهم، وأن العلم، والثقافة، والتعليم، يتوجب إعادتها تماماً إلى أيدي الرهبان، وقد كتب يقول:

*«إن الشيء الوحيد الصالح الذي ندين به إلى أفلاطون وأرسطو هو أنهما قدما كثيراً من الحجج والمناقشات التي يمكن أن نستخدمها ضد الهراطقة، مع أنهما مع الفلاسفة الآخرين هم الآن في النار. . . ولسوف يكون صالحاً للدين إذا كان هناك الكثير من الكتب يبدو أنها مفيدة، أن يجري تدميرها، فعندما لا يكون هناك مثل ذلك العدد الكبير من الكتب، وليس هناك مثل هذه المناقشات الكثيرة والخلافات، سوف ينمو الدين بسرعة أكبر مما كان عليها قط»*[11].

وقام سافونارولا بتنفيذ إصلاحاته السلوكية في فلورنسا حيث استخدم أساليب تتسم بها الدولة البوليسية، حيث أشرف على السلوكيات الشخصية من خلال تجسس الخدم، ونظم عصابات من الشباب للإغارة على بيوت فيها أشياء لا تتوافق

مع المثل الأرثوذكسية المسيحية، وجرى في عام 1497م إحراق كتب، خاصة ما عاد منها إلى الشعراء اللاتين والإيطاليين، وكذلك مخطوطات مزينة، وأدوات الزينة للنساء، وأدوات الموسيقى، ولوحات مرسومة، كلها أحرقت في نار كبيرة، فيها جرى تدمير كثير من أعمال عصر النهضة في فلورنسا.

ومع هذا كان مجتمع العصور الوسطى مليئاً بعدم الرضا والخلاف، فقد شرح كثيرون ينشدون العلاقة مع الرب ويطالبونها خارج الكنيسة، فقد وجد عامة الناس في العصور الوسطى قليلاً في الكنيسة يمكنهم الارتباط به، فقد غدت الكنائس أعظم مكانة، وأكثر تمسكاً بالشكليات، وألحت بحدة على الفوارق بين رجال اللاهوت وسواهم من الناس، وكانت ستارة الجوقة الغنائية تعزل جمهور المصلين عن المذبح، أما لغة القداسات التي تبدلت في القرن الرابع من الإغريقية إلى اللاتينية، حتى تكون أسهل فهماً، فقد باتت مع نهاية القرن السابع غير مفهومة تماماً بالنسبة إلى كثير من الناس، بما فيهم عدد كبير من الكهنة، ونتيجة لذلك غالباً ما باتت القداسات غير معقولة وبكماء، وغدت تماماً بلا معنى بالنسبة للمصلين[12].

وباتت الكنيسة ثرية الآن بلا حدود، شغلت نفسها أكثر في جمع المال، وآثرت ذلك على الارتباط بأعضائها وانشغال الكنيسة في العصور الوسطى وانصرافها كلياً نحو تحصيل الثروات، وصل إلى حد أن وصاياها العشر، قد اختصرت وتحولت إلى وصية واحدة هي «اجلب المال إلى هنا»[13]، وجرى اختيار الكهنة على أساس ثرواتهم أكثر منه على أساس بقية فضائلهم، وتطور تباين هائل بين رجال اللاهوت وغير اللاهوتيين، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل كان هناك تفاوت كبير جداً بين مراتب رجال اللاهوت، فقد كان - على سبيل المثال - دخل أسقف ثري، يتراوح ما بين ثلاثمائة ضعف إلى ألف ضعف حجم دخل الشماس[14]، ومنعت الكنيسة في القرن الثاني عشر، وحرمت على رجال اللاهوت الزواج، لمنع انتقال الثروات، وانتزاعها من الكنيسة، عن طريق الوراثة بين أسر رجال اللاهوت[15]، ودفع التناقض العقائدي في جمع الثروات الهائلة المنظمات التي قالت عن نفسها بأنها تمثل مُثل يسوع المسيح، إلى إصدار قرار أو مرسوم Cum inter nonnullos في عام 1326م، أعلن فيه هرطقة من يقول بأن المسيح ورسله يمتلكونَ أية ممتلكات[16].

وشرع الذين استهدفوا تحقيق ارتباط أكثر عمقاً ومعنى مع الرب، يزدادون انصرافاً نحو حركات خارج الكنيسة الكاثوليكية، ومثلت هذه الحركات الهرطقية في العصور الوسطى تكتلات كثيرة التنوع في التفكير، فقد كانت هناك الطوائف الرؤويَّة التي آمنت بأن العالم قد اقترب من النهاية، وهؤلاء من أمثال الذين اقتيدوا من قبل: بطرس دي بروي Breey، وهنري أوف لوزان Lausanne، وأرنولد أوف بريسيشيا Brescia، وآذنت جماعات أخرى مثل الوالدنسيانيين Waldensians، واللولارديين Lollards بظهور البروتستانت في رغبتهم بالارتباط بدقة أكبر، والالتزام بالكتابات المسيحية المقدسة، ومع ذلك اعتنقت مجموعات أخرى مثل: إخوانية الروح الحرة، والتولوبينيين Tulupins، والآدميتيين Adamites أفكار وحدة الوجود، وعقائد حيوية المادة (أي أن لكل شيء في الكون روح)، وتصوروا بأن العالم المادّيّ هو متّحدٌ بالكامل ومدموج مع حضور الرب[17]، ومع نهاية القرن الرابع عشر تحدى ميستَير إيكهارت Meister Eckhart فكرة الحاجة إلى الكنيسة نفسها، حيث كتب: «عندما يظهر الملكوت إلى الروح، ويتم إدراك ذلك، لن تكون هناك حاجة بعد ذلك للوعظ أو للتوجيه والإرشاد»[18].

وأصرت كثير من الهرطقات على العلاقة المباشرة مع الرب، على الرغم من الخطر، وترجمت الكتاب المقدس إلى لغات عامية أو دارجة، يمكن للناس غير اللاهوتيين فهمها، وكانت عقوبة استحواذ مثل هذه التوراة هي الموت[19]، وفي إطار روح تقديم صور يمكن للناس أن يرتبطوا بها، بدأت صور المسيح أيضاً تصبح أكثر إنسانية وقرباً، وبالانتقال من التصوير الرومانسي ليسوع بمثابة القاضي للعالم القاسي، والكهنوتي الذي لا يمكن الوصول إليه، أخذ الفن القوطي الآن بتصويره ورسمه بمثابة كائن بشري، أكثر معاناة وأعظم رحمة[20].

وكانت عقيدة عبادة العذراء التي قد ازدهرت في العصور الوسطى، فيها أصبحت العذراء مريم الشخص الذي يمكن للإنسان أن يلتفت إليه من أجل الغفران، وهي التي يمكنها أن تحتج ضد أحكام الرب والشريعة القاسية التي لا تعرف الرحمة،

وقد حدثنا غيوفري آشي Geoffrey Ashe في كتابه «العذراء» وحكى لنا روايات وصفت لطفها وشفقتها من ذلك قوله :

*«اللص يصلي لها قبل ذهابه إلى السرقة ، وعندما يعلق على المشنقة تسنده في الهواء إلى أن يعلن الجلاد عن المعجزة ويتركه حياً .*

*والراهبة التي تترك ديرها للانغماس في الإثم ، لكنها تداوم على الدعاء إلى مريم ، ثم تعود أخيراً لتجد أن العذراء مريم قد أخذت مكانها وشغلته ، ولذلك ما من أحد شعر بعدم وجودها»*[21] .

وجرى تكريس ابتهالات خاصة إلى العذراء مريم ، كما أن أعظم كاتدرائيات العصور الوسطى قد أوقفت عليها ، وذلك في باريس ، وتشارترز ، وريمس ، وأمينس Ameins ، وروان ، وكاتانسز Coutansces ، ونويون Noyon ، وليون Laon[22] ، وطورت أسماء مثل : «الوعاء الروحي» و«سبب سرورنا ومتعتنا» ، و«خيمة العهد» و«مقعد الحكمة» وأشار شوسير Chaucer إليها على أنها «الملكة القديرة والرحيمة»[23] ، وأعطى تمثال خشبي للعذراء والطفل يعود إلى القرن الرابع عشر ، صنعه فنان ألماني مؤشرات تبجيل العصور الوسطى لهذه الأنثى الممثلة للربوبية ، ولدى فتح تمثالها شوهدت العذراء وهي تحتضن الثالوث كله وتحتويه[24] .

وجاءت ردات فعل الكنيسة ، ليس بمحاولة تلبية حاجات الناس ، ولكن بتقوية بناءها السلطوي ، وبتطوير نظامها القضائي ، وبالتأكيد بشدة أعظم على تفوقها على الجميع ، ثم وسعت البابوية إدارتها ومجلسها الاستشاري الذي اسمه «الكوريا Curia» ، وزادت من تنظيمها للأساقفة ، وشرعت مجدداً بالدعوى إلى مجامع مقدسة ، واستخدمت بصورة متزايدة الأهمية النواب البابويين ، وكان النواب البابوين موظفون يمكنهم تجاوز سلطة الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، وأزالوا بشكل فعلي السلطات المحلية للأساقفة ، ووضعوا الأديرة بشكل أكثر مباشرة تحت السلطة البابوية[25] .

تصور هذه القطعة الخشبية المعمولة في القرن الخامس عشر
طبيعة الحماية التي عزيت للعذراء مريم

**تصور هذه القطعة الخشبية المعمولة أيضاً في القرن الخامس عشر العذراء كحامية حيث قامت بمساعدة الملائكة بوقاية الناس من نشاب الرب**

وطورت الكنيسة نظامها القانوني الخاص لتدعي السلطة في مجال الشؤون غير اللاهوتية، وكان انبعاث القانون المدني، الصادر عن القانون الروماني والقانون الجرماني، قد حل محل الأعراف الإقطاعية، وزود التجارة بتطبيق مفاهيم وقواعد ذوات مجالات تطبيقية أوسع من الأعراف الريفية، التي قد تختلفُ تبعاً لكل منطقة محلية[26]، ولم يعترف القانون الروماني - على كل حال - بالبابا، ومع عام 1149م أدرك القديس برنارد مخاطر تطبيق القانون المدني بالنسبة للكنيسة، واشتكى من أن

المحاكم تعج بقوانين جوستنيان عوضاً عن قوانين الرب[27]، ومع عام 1219م حرم البابا على الكهنة دراسة القانون الروماني كلياً، وحظر تدريسه في جامعة باريس[28].

وعوضاً عن ذلك وضعت الكنيسة نظامها الخاص الذي دعته باسم القانون الشرعي، وقام في القرن الحادي عشر ايفو أوف تشارترز، وغراشيان Gratian في القرن الثاني عشر بإعادة تنظيم الكتلة غير المتناسقة والتي كانت في الغالب متعارضة، من المراسم والمراسيم في مدونات مفهومة، أكدت سيادة البابا وتفوقه، وقد كان مسموحاً له في ظل هذه القوانين الشرعية في توزيعها ووضعها موضع التنفيذ، وادعت المحاكم الكنسية العرفية السيادة القضائية والحق في فض جميع القضايا التي فيها منافع الكنيسة مهددة، مثل القضايا المتعلقة بالعشور، والمنافع، والأعطيات، والوصايا، ولكي تحمي الكنيسة مصالحها ادعت الحق بمحاكمة جميع أعضاء رجال اللاهوت[29]، وادعت الكنيسة الحق القضائي على جميع المسائل التي لها علاقة بالقربان المقدس أو باليمين، وكما أشار أحد المؤرخين: «لم يكن هناك أدنى حدود لتدخل الكنيسة لأنه في العصور الوسطى كانت رغبة المجتمع بأي شيء مرتبطة بالقربان المقدس، أو معتمدة على يمين»[30].

وصرفت كثير من الكنائس جهودها نحو تنظيم القانون الشرعي وإضافة التحسين والثقة إليه، وهو القانون الذي ركز على تأسيس سيادة البابا وترسيخها على السلطات الإمبراطورية، وأعطيت نظرية «كمال السلطة» البابا سلطة تامة على كل من الشؤون الدينوية والروحية، بحكم أنه نائب المسيح، وسمحت له بمنع توزيع القداسات المقدسة وإقامتها في إحدى ممالك الإمبراطورية، وأن يقوم بفرض عقوبة الحرمان الكنسي على ملك من الملوك وخلعه[31]، وألغى إملاء القانون الشرعي التكريسي للبابوات المعيّنين من قبل الإمبراطورية، حيث أطلق عليهم البابوات المضادين، وشمل الإلغاء تكريس أي واحد من رجال اللاهوت جرى تكريسه من قبل مثل هؤلاء البابوات المعيّنين إمبراطورياً.

وجرى اكتشاف رسائل قديمة ودمجها في القانون الشرعي، واتخذت بمثابة بينة شاهدة على تفوق البابا على السلطات الإمبراطورية، وعرفت واحدة من هذه الرسائل باسم «هبة قسطنطين»، وقد استهدفت القول بأنها رسالة من الإمبراطور قسطنطين إلى البابا سيلفستر، فيها منح قسطنطين سلطاته إلى البابا، ومما جاء في

الرسالة: «نحن نمنح إلى . . . . سيلفستر، البابا العالمي. . . مدينة روما وجميع مقاطعاتها ومناطقها ومدن إيطاليا، والأقاليم الغربية. . .»[32]، وفي القرن السادس عشر تبين بأن هذه الرسائل كانت مجرد زيف كامل.

وأصبح البابا بازدياد متورطاً في توجيه الصراعات السياسية، وفي الاستيلاء على البلدان، فقد كتب البابا بونيفيس الثامن إلى ألبيرت هابسبورغ ملك النمسا: «نحن نهبك بحكم سلطاتنا الكاملة، مملكة فرنسا، التي هي عائدة إلى امتياز أباطرة الغرب[33]، وقام البابا أدريان الرابع في رسالته التي أرسلها في القرن الثاني عشر إلى الملك هنري الثاني، ملك انكلترا بالتصديق على الغزو الانكليزي إلى إيرلاندا، حيث كتب يقول:

*«إنه مما لا شك فيه، وكما تعرف ذلك، إن إيرلاندا وجميع هذه الجزر، التي تلقت الإيمان، عائدة إلى كنيسة روما، فإذا ما رغبت بالدخول إلى تلك الجزيرة، لتطرد الشرور منها، ولتجعل الشريعة مطاعة، وأن يجرى دفع بنس القديس بطرس من قبل كل بيت، يسرنا أن نمنحك إياها»*[34].

ووصف المؤرخ فيليب سكاف Schaff إجراءات بابوية العصور الوسطى وأعمالها بقوله:

*«لأن تخلع أمراء، وأن تحلل رعايا من التهم، ولتثير بفعالية الثورة ضد فريدريك الثاني، وأن تحول أراضي في جنوب فرنسا مثلاً، وأن تنزع تيجاناً، وأن تستخرج بالتهديد بفرض أقسى العقوبات الكنسية، دفع ضريبة، وأن تعاقب منشقين دينيين بالسجن الأبدي، أو أن تقوم بتحويلهم إلى السلطات المدنية، وأنت عارف بأن الموت سوف يكون العقوبة، وأن ترسل جيوشاً صليبية وأن تباركها، وأن تغزو مملكة ذات بلاط مدني، وأن تغتصب سلطاتها، وأن تزيل قانون أمة وتمحوه، كما حدث في قضية الماغنا كارتا لقد كانت هذه هي الامتيازات العليا، التي مورست فعلياً من قبل البابوية»*[35].

وازدادت الرغبة البابوية للسلطة بشكل مضطرد، وقد اعتقد البابوات في أنفسهم أنهم متفوّقون على جميع المخلوقات الآخرين، ولم يدعّ البابوات فقط بأن كل شخص هو خاضع للسلطة البابوية، بل إن البابا نفسه لا يحاسب من قبل أحد، إلاّ الرب وحده، وفي عام 1302م أصدر البابا بونيفيس مرسوم Unam Sanctam الذي جاء فيه:

*«وبناء عليه إذا ما أذنبت سلطة أرضية، إنها سوف تحاكم من قبل القوة الروحية.. ولكن إذا ما أذنبت السلطة الروحية العليا، فإنها سوف تحاسب من قبل الرب، وليس من قبل أي إنسان.. ولذلك إننا نعلن، ونصرح، ونحدد، ونتفوه: إنه بالإجمال من الضروري لخلاص كل مخلوق بشري أن يكون خاضعاً للحبر الروماني»*[36].

ومما لاشك فيه أنه قد تفجرت النقاشات حول من الذي ينبغي أن يكون بابا، ويستحوذ على مثل تلك السلطة، وفي الانشقاق الكبير، حكم خطان منفصلان من البابوات، خط كان يعيش في روما، والخط الآخر عاش في آفنون Avignon، من 1378 حتى 1417، ولم يختلفا حول القضايا المتعلقة باللاهوت المسيحي، أو الممارسات الدينية، بل اختلفا حول السياسة، وحول من الذي ينبغي أن يحكم.

وكان من الوسائل الأخرى التي استجابت بها الكنيسة لمشاكل العصر، كانت عبارة عن محاولة تركيز الانتباه بعيداً عن التحركات الاجتماعية الهائلة، وكان ذلك بالاتجاه نحو عدو خارجي، ففي عام 1095م دعا البابا أوربان الثاني فرسان أوربا إلى الاتحاد والزحف إلى القدس، لتخليص الأرض المقدسة من المسلمين الكفرة، وهيأت الحروب الصليبية فرصة لتوسيع زيادة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية، كما أفادت الحروب الصليبية في تحقيق غايات سياسية أكثر قرباً في الوطن، وكان عندما افتتح البابا الحملة الصليبية الأولى في عام 1095، كانت الحروب الصليبية وسيلة لتوحيد قسم كبير من أوربا باسم المسيحية.

وتلبس الصليبيون بمشاعر استقامتهم وحقهم، وبناء عليه قاتلوا بوحشية أعداء الكنيسة، وقد أعلن البابا غريغوري السابع «اللعنة على كل رجل يرد سيفه ويرجعه عن سفك الدماء»[38]، ووصف المؤرخ ريموند أوف أغويلر Aguiler المشهد عندما ذبحت عصابة من الصليبيين المسلمين في القدس عام 1099م بقوله:

*«وشوهدت أشياء رائعة، فقد جرى قطع رؤوس أعداد من المسلمين... ورمي آخرين بالنشاب، أو أرغموا على القفز من الأبراج، وجرى تعذيب آخرين لعدة أيام، ثم أحرقوا بالنيران، وكان الذي يشاهد في الشوارع أكواماً من الرؤوس والأيدي والأرجل، وكان الإنسان يتجول في كل مكان وسط جثث الرجال والخيول، وخاضت الخيول في المسجد الأقصى بالدماء حتى ركبها، لا بل حتى أفواهها، لقد كان حكماً ربانياً عادلاً ورائعاً، أن يمتلئ هذا المكان بدماء غير المؤمنين»*[39].

البابا أوربان الثاني يدعو إلى الحروب الصليبية، ففي الوقت الذي قيل فيه بأن مقصد الحروب الصليبية كان إنقاذ الأرض المقدسة من الكفار، ساعد الصليبيون أيضاً على توحيد أوربا تحت لواء البابوية، وألغوا توجيه النقد إلى البابوية.

وكتب المؤرخ البيزنطي نيقيطياكونياتس Nicetas choniates: «إنه حتى المسلمين أكثر رحمة وشفقة مقارنة بهؤلاء الرجال الذين يحملون صليب المسيح على أكتافهم»[40].

وكان هناك عدوٌ آخر استهدفه الصليبيون هو الكنيسة الشرقية المؤسسة في القسطنطينية، وكانت ثقافتا الشرق والغرب قد ازدادتا بعداً عن بعضهما بعضاً لقرون، وكانت الثقافة الشرقية قد أعطت احتراماً أكبر للفنون، والآداب، والتعليم، كما كانت أكثر صقلاً ونضوجاً من الثقافة الغربية، واحتفظ الشرق باحترام بكتابات الإغريق القدماء، وبقيت اللغة الإغريقية هي اللغة الرسمية للقانون، والحكومة، وللكنيسة الشرقية، والآداب الشرقية، أما في الغرب فقد ضاعت حتى الأبجدية الإغريقية، وكما كتب المؤرخ شال. هـ. هسكنز HasKins: «أصبحت الكلمات على يدي الكاتب في العصور الوسطى غير مفهومة أو أنها حذفت، وأقحم مكانها كلمة Grecum، فقد كان كله إغريقيّاً بالنسبة له»[41]، ومنذ أواخر المائة السابعة للميلاد، بدأت الثقافتان في استخدام نقود مختلفة[42]، وتنامت الفوارق بين الثقافتين مع تطوير كل من الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، كل على حدة أشكالها الخاصة من الطقوس المسيحية، فقد احتفلتا بعيد الفصح في أيام مختلفة، واختلفتا في آرائهما حول ما يتعلق باستخدام الأيقونات، وفي ترتيب الثالوث المقدس حسب شريعة نيقية[43]، وكان هناك القليل من القواسم المشتركة بين الشرق والغرب، وذلك زيادة على أنهما معاً كانا يعدان أنفسهما مسيحيين.

ففي عام 1054م، بعدما أخفقت محاولات جبر الخلافات بين روما والقسطنطينية، تولت الشعبتان المسيحيتان صياغة انفصالهما، فبالنسبة للكنيسة الرومانية التي أكدت بنشاط تفوقها على الجميع، نُظر إلى الانفصال من قبلها على أنه تحدٍّ مواجهةٌ ورفض لسلطة البابا، وبمساعدة الكهنة الذين طوروا فكرة أن المنشقين الإغريق كانوا أتباع الشيطان، وينبغي توجيه اللوم إليهم حول كل نازلة ومصيبة، قام أفراد الحملة الصليبية الأولى في عام 1096 بنهب بلغراد، التي كانت المدينة الإمبراطورية الثانية بعد القسطنطينية[44]، وكتب مؤرخ إغريقي عن البابا يقول:

*«. . . إنه يرغب في إرغامنا على الاعتراف بسيادة البابا وبتفوقه بين جميع الأساقفة، وأن نذكر اسمه في صلواتنا العامة، وذلك تحت التهديد بتنفيذ عقوبة الإعدام بحق الذين يرفضون»*[45].

وفيما بعد أرسل البابا أنونسنْتْ الثالث في عام 1024، جماعات من الصليبيين إلى القسطنطينية، وانقضّ جند المسيح على القسطنطينية بروح انتقامية: يغتصبون، وينهبون المدينة ويحرقونها، وتبعاً للمؤرخ غيوفري فيلهاردين Geoffrey Villehardouin لم يحدث قط منذ خلق العالم أن أخذت مثل هذه الأسلاب كثرة من مدينة من المدن[47]، ورد البابا على الإمبراطور الإغريقي قائلاً:

*«. . . نحن نعتقد بأن الإغريق قد عوقبوا من خلال (الصليبيين) بموجب حكم عادل صادر عن الرب، فهؤلاء الإغريق هم ناضلوا جاهدين في سبيل تمزيق رداء يسوع المسيح، الذي لا نظير له. . . إنهم الذين رفضوا الالتحاق بنوح في سفينته، فهلكوا باليم بشكل عادل، وهؤلاء هم الذين تألموا بشكل عادل من المجاعة، وعانوا من الجوع، لأنهم رفضوا استقبال بطرس المبارك أمير الحواريين، ليكون راعياً لهم. .»*[48].

وبالنسبة للبابا كان اغتصاب القسطنطينية عقوبة عادلة لأنها رفضتْ الانصياع والطاعة للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وأيدت نصوص التوراة موقفه هذا مثل قوله: «لكن أعدائي هؤلاء، الذين رفضوا بأن أحكم عليهم، أحضرهم إلى هنا، وأذبحهم أمامي»[49]، وبعد الهجوم تولى بطريرك لاتيني خاضع للبابا حكم المملكة حتى عام 1261م[50]، وتركت القسطنطينية - على كل حال - ضعيفة بشكل حاد، حتى سقطت في عام 1453م إلى الفاتح التركي.

صورة دخول الصليبيين إلى القسطنطينية

وفي حوالي المائتي عام من الاحتلال الصليبي، تمّ قتل آلاف إن لم نقل ملايين، وأحدث الصليبيون دماراً كبيراً مثلما فعلت الكنيسة في مستهل عصور الظلام، ولقد أحرقوا أي كتاب وجدوه[51]، وجرى إحراق مدارج عبرية مقدارها اثنا عشر ألف مجلد من التلمود، والكتابات الميمونية[52]، وفي الوقت الذي نهب فيه الصليبيون وسلبوا بانتقام، غالباً ما وجدوا أنفسهم غير قادرين على نقل كل شيء إلى أوطانهم بسبب صعوبة السفر، ومع أن الصليبيين جلبوا في أيامهم القوى العسكرية الأوربية التي احتشدت مع بعضها باسم المسيحية، سقطوا وأخفقوا، ونأوا بعيداً عن مقاصدهم الأخرى ونواياهم، وأخفق الصليبيون في كسب أكثر من تحكم ومراقبة متلاشية على القدس، وأخفقوا في إغناء صليبياتهم، ولم يستطع الصليبيون كسب متحولين إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكَية، ونجحوا في نشر شعور مرير بالعداوة ما يزال مستمراً حتى اليوم[53].

وكان اليهود الأوربيون بالغالب هم أول ضحايا الصليبيين، هذا واستمر الاضطهاد المسيحي لليهود مدة طويلة بعد انتهاء الحروب الصليبية، وأصبح اليهود أكباش أضحية لكثير من القضايا لم تستطع الكنيسة تثبيتها، من ذلك على سبيل المثال، عندما استعر طاعون الموت الأسود، المتربط بداء الدبلي في القرن الرابع عشر، أوضحت الكنيسة أنه ينبغي توجيه اللوم إلى اليهود من أجله، وحرضت على هجمات عليهم[54]، وتطورت تقاليد شعبية ادعت بأن اليهود قاموا باختطاف أطفال مسيحيين وأنهم قد أكلوهم خلال موائد طقوسية يهودية لأكل البشر، وأن اليهود قد سرقوا القرابين المقدسة المسيحية المقدسة والمباركة ودنسوها، وكانت هذه هي القصص التي رواها الرومان صدوراً عن الكراهية للمسيحيين، ومثل ذلك القصص نفسها التي سوف يتحدث بها المسيحيون عن السحر، وهي القصص نفسها التي سوف يحكيها البروتستانت عن الكاثوليك[55]، وأصبحت المذابح المنظمة، والغارات على الكنس والأحياء اليهودية، وتدميرها، مظهراً عاماً من مظاهر الاستقامة والصلاح المسيحي.

وكان اليهود أهدافاً سهلة، لأنهم لم يتم قط احتضانهم من قبل المجتمع المسيحي، وفي ظل النظام الإقطاعي تضمنت رسوم التعيين والولاية، أن يؤدي المسيحي يميناً يتعهد فيه بإقصاء اليهود وإبعادهم عن عمل الأراضي وإرسالهم إلى

التجارة والحرف في المدن، وحدث على كل حال، أنه مع التزايد السريع للسكان في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ، وما تلاه من تدفق للناس على المدن، تأسيس نقابات الحرفيين، حيث صار لكل نقابة وليها الحامي وقديسها، وهنا مرة ثانية جرى طرد اليهود وإبعادهم إلى الحقول المتبقية، وهي: الأعمال المصرفية، وتبديل الأموال، وإقراض الأموال[56]، ولذلك صار اضطهاد اليهود أيضاً وسيلة موائمة ليتخلص الإنسان من المستدين منهم، واتخذت المناقشات الدينية حجة من قبل الملوك المستلفين للأموال لتسويغ مصادرتهم للمتلكات اليهودية، ولطرد اليهود من ممالكهم[57].

وأصبح كل واحد استحوذ على سلطة مرشحاً لأن يكون هدفاً للكنيسة، ومن ذلك مثلاً أن فرسان الداوية، الذين كانوا بالأصل مجموعة تشكلت لحماية الصليبيين، ثم أصبح هؤلاء الفرسان - وقد حصلوا على نفوذ سياسي - ، مقرضين للأموال موثوقين[58]، ومن المعتقد أنهم جلبوا معهم لدى عودتهم غنوصية، وقبالا (تصوف باطني يهودي)، وتصوُّفاً إسلامياً، وخشيت الكنيسة - ومعها الملوك - من ازدياد القوة السياسية للداوية، وصار هؤلاء مرتابين بما بدا من معتقدات دينية مستقلة، واستولت عليهم الغيرة بسبب ثرواتهم، ولذلك امتلكت كل من الكنيسة وبعض الملوك سبباً لاضطهادهم، ومثلما كان الحال مع اليهود، بدأت حكايات لاتصدق تروج حول الداوية، بما في ذلك روايات عن ممارسات طقوسية، تتضمن إنكار المسيح، والرب، والعذراء، والبصاق، والدوس، والتبول على الصليب، كما أنهم اتُّهموا باللواطة، وبقتل الأطفال غير الشرعيين، وبالسحر، وبناء عليه جرى قتل الداوية، وصودرت ممتلكاتهم[59].

ووجدت الكنيسة نفسها في وضع غريب وعدائي مع صنوف من الناس في العصور الوسطى، فكانت ردات فعلها سريعة، وقمعت بحدة وشدة البذور الأولى للقومية والرغبة بالاستقلال عن روما، وعندما نشبت خلافات حول دفع الضرائب في عام 1275، حرم البابا كنسياً، مدينة فلورنسا كلها[60]، وعندما نظمت مجموعة من دول المدينة الإيطالية الصغيرة ثورة ضد سيطرة البابا في عام 1375، استأجر نائب البابا في إيطاليا، روبرت أوف جينيفا Geneva عصابة من المرتزقة لإعادة الاستيلاء

على المنطقة، وبعدما أخفقت في الاستيلاء على مدينة بولونيا، انطلقت هذه العصابة للهجوم على بلدة سيسنا Cessna[61] الصغرى:

*«مقسمين قسم رحمة بيمين مهيب على قبعة الكاردينال، وأقنع الكاردينال روبرت رجال سيسنا حتى يلقوا أسلحتهم، وكسب ثقتهم بطلب خمسين رهينة، فكان أن أطلق سراحهم على الفور، بمثابة بادرة حسن نية، ثم حشد مرتزقته وجمعهم... وأمرهم بالقيام بمذبحة عامة (لتطبيق العدالة)... ولمدة ثلاث أيام وثلاث ليال بدأت في الثالث من شباط 1377م، وبينما كانت أبواب المدينة مغلقة تولى الجنود الذبح (وباتت جميع الساحات مليئة بالموتى)، وفي محاولة للنجاة، غرق مئات في الخنادق، وطعنوا بظهورهم بسيوف لا تعرف الشفقة، واعتُقلتْ نساء من أجل الاغتصاب، وفرضت الفدية على الأطفال، وأعقب النهب القتل، وتلاه، ودمرت أعمال فنية، وتم إفساد المصنوعات الحرفية، وكل ما لم يمكن حمله والذهاب به، أحرقوه، أو جعلوه غير قابل للاستخدام، أو نثروه محطماً فوق الأرض، وكان عدد القتلى ما بين 2500 إلى 5000»*[62].

وعين روبرت أوف جينيفا بابا بعد مضي ثلاثة أعوام في 1378، وأصبح يعرف باسم كليمنت السابع[63].

واعتماداً على الحدة المتناهية التي هجمت فيها الكنيسة على مجموعة اسمها الكاثارية Cathars، نستخلص أن عظمتها تهددت بهذه الهرطقة أكثر مما تهدَّدتْ من قبل أي هرطقة أخرى في التاريخ، وانتعشت الكاثارية ونشطت في جنوب فرنسا في منطقة عرفت آنذاك باسم اللاندوك Langedoc، كانت متميزة سياسياً وثقافياً عن الشمال، وكانت لاندوك متسامحة تجاه الاختلافات، فقد عاش هناك كثير من الأجناس مع بعضهم بوئام من: إغريق، وفينيقيين، ويهود، ومسلمين، ولم يكن اليهود متحررين فقط من الاضطهاد، بل إنهم احتلوا مكانة عالية، ووظائف استشارية مع اللوردات، لا بل حتى مع الأساقفة، وكان هناك تمييز طبقي أدنى وأخف، وشكل ألطف من أشكال الأقنان، ومدن حرة، ونظام قضائي مقام على القانون الروماني[64]، ولم يكن السكان في أي مكان آخر بمثل ثقافة سكانها، حيث كانت الثقافة والتجارة مزدهرتيْن، جاعلين منطقتهم أكثر المناطق ازدهاراً في أوربا.

وكان في الكاثارية ومندمج فيها الكثير من العناصر الدينية المختلفة، وهناك بينة قوية على وجود علاقة متينة بين الكاثارية وجماعات التصوف الإسلامي، وتقاليد القبالا اليهودية[66]، وشغلت النساء وظائف الكهنة وكان بإمكانهن القيام حتى بأكثر الطقوس أهمية مثل الـ Consolamentam[67]، وكان للكاثاريين علاقة وطيدة مع التوربادور، ومع كتاب الشعر الرومانسي، وقيل بأنهم اعتقدوا بأن الربّ تجلّى في ألوان الطبيعة والأصوات[68]، وكانوا محبوبين ومحميين من كل من الطبقات العليا ومن قبل جيرانهم الكاثوليك، إلى حد أنه عندما اختارت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فيما بعد قتالهم، اختار كثير من الكاثوليك الموت على التخلي عن جيرانهم الكاثاريين، وتسليمهم إلى الكنيسة[69].

ورداً على ازدياد شعبية الكاثاريين، اتهمتهم الكنيسة الكاثوليكية بالإثم العظيم: أي بتحقير الصليب والقربان المقدس، وبأكل لحوم البشر، وبرفض المسيح، وبالإباحة والعربدة الجنسية[70]، ومع ذلك فإن القديس برنارد الكاثوليكي الذي لا يمكن وصفه بأنه صديقٌ للكاثاريين قد قال عنهم:

*«إذا ما استجوبتهم، لن يكون هناك شيءٌ أكثر مسيحية، أما بالنسبة لأحاديثهم لا شيء يستحق التوبيخ، والذي يقولونه يبرهون عليه بالأفعال، وبالنسبة لأخلاق الهرطقي وسلوكه، هو لا يغش أحداً ولا يخدعه، وهو لا يظلم أحداً، وهو لا يضرب أحداً، وجنتاه شاحبتان من الصيام، وهو لا يأكل خبزَ الكسالى، وهو يعمل بيديه من أجل عيشه»*[71].

وجاء نشر الحكايات التآمرية المشوهة عن شرور الكاثاريين وفظاعاتهم، إما للجم شعبية الكاثاريين أو أنها جاءت لاجتثاث تيار التسامح، والتفكير الاستقلالي، وقد أثر هذا قليلاً بالاستخفاف بواحد من أشد عقوبات الكنيسة، حيث أن بلدة فيتربو Viterbo أقدمت على انتخاب واحد من المحرومين كنسياً حاجباً كبيراً[72].

وفي عام 1139م بدأت الكنيسة بالدعوة إلى مجامع كنسية لإدانة الكاثاريين وجميع الذين يؤيدونهم[73]، ومع عام 1179م أعلن البابا الاسكندر الثالث حرباً صليبية ضد أعداء الكنيسة هؤلاء، واعداً بغفران عامين، والإعفاء من العقوبة لاقتراف الذنوب، إلى الجميع الذين سوف يحملون السلاح، مع خلاص سرمدي لكل من سوف يموت، واستخدمت كل هذه الإجراءات لتزويد الكنيسة بقوة عسكرية

لمحاربة الخلافات الكنسية الخاصة[74]، وقد أخفقت في حشد قوة ضد الكاثاريين المتمتعين بالشعبية، ثم قام في عام 1204م البابا إنوسنت الثالث في تدمير ما بقي من استقلال لدى الكنائس المحلية، وذلك عندما سلح نوابه بصلاحيات بأن «يدمروا، وأن يطيحوا، أو أن يقتلعوا ويجتثوا كل ما ينبغي تدميره، وبالإطاحة، أو باقتلاع، أو بزرع، أو ببناء كل الذي سيبنى أو يزرع»[75]، وفي عام 1208م عندما منح إنوسنت الثالث بالإضافة إلى الغفرانات والخلاص السرمدي، أراضيَ، وممتلكات الهراطقة مع مؤيديهم، إلى أي واحد سوف يحمل السلاح، هكذا بدأت الحملة الصليبية الألبينية Albigensian بذبح الكاثاريين.

**إنوسنت الثالث ـ بابا من 1198 حتى 1216م**

وأتلفت الوحشية التي امتدت ثلاثين عاماً عُشْر سكان لاندوك، ففي كاتدرائية القديس الناصري وحدها جرى قتل اثني عشر ألف إنسان، وأعدم فولق Folque أسقف طولوز عشرة آلاف إنسان[76]، وعندما انقض الصليبيون على بلدة بيزيرس Beziers، سئل النائب البابوي أرنود Arnaud الذي كان متولياً القيادة: كيف يمكن تمييز الكاثوليكي عن الكاثاري؟ فأجاب: «اقتلوهم جميعاً، لأن الرب يعرف جماعته»[77]، لذلك لم ينج من القتل ولا واحد من الأطفال ولم يستثنَ، وقد كتب واحد من المؤرخين يقول: «حتى الميت لم يكن آمناً من الإهانة، وكانت أسوأ أعمال الإهانات هي تكويم الأموات وتكديسهم فوق النساء[78]، وكان عدد الذين قتلوا في بيزيرس عشرين ألفاً حسب رواية النائب البابوي، وحسب المؤرخين الآخرين ما بين ستين ألفاً ومائة ألف[79]، وقد قتلت الحملة الصليبية الألبينية مليونا من الناس، فهي لم تقتل الكاثاريين وحدهم فقط، بل قتلت كثيراً من سكان فرنسا، وبعد ذلك ضمت أراضي جنوب فرنسا إلى الشمال، بعدما تمت إبادة سكانها تقريباً، وبعدما تركت أبنيتها أكواماً من الخرائب، وبعدما جرى تدمير اقتصادها».

وعجزت الكنيسة الكاثوليكية، وهي مطوقة بهيكلها السلطوي، وكذلك مُلْتهمة من قبل اعتقادها بتفوقها الخاص، ولم تكن قادرة على التجاوب مع النمو السريع، والتغيير الذي شمل مجتمع العصور الوسطى، وعوضاً عن ذلك طالبت بالطاعة إلى إملاءات البابا، وعندما أخفقت الحروب الصليبية ضد المسلمين، والإغريق واليهود الكفار، ولم تستطع إقامة وحدة أوربية دائمة تحت راية المسيحية، وجهت الكنيسة ضرباتها بالقرب إلى الوطن، وقاتلت أي واحد يهدد سلطتها، أولا يطيع أوامرها، وبالحرب التي امتدت ثلاثين عاماً، بشرت الحملة الصليبية الألبينية بنهاية مدة زمانية طولها خمسمائة عام من الظلم والتنكيل الوحشي، وهي مدة بطولها وبمدى اتساعها وشمولها لا نظير لها في العالم الغربي.